الاحساء ونزل في عُقْرُبا المعروفة وحاصر بلدة العمارية حتى هزلت مواشيهم وأصابتهم اضرار كثيرة . ثمَّ سار الى الدرعية ونهب بيوتها فقتل اهل الدرعية كثيراً من قومهِ وفرَّ العلماء الى بلادٍ يجدون فيها راحتهم . ولما مات سعدون المذكور سنة ١١٣٨ هـ = ١٧٢٥ م عُمّرت منازل بني هلال ومنازل بني سعيد وآل بني سليمان في بلدة الروضة المعروفة في ناحية سدير . فتنفس العلماء الصعداء وعاد أغلبهم من مَفَرِّهم الى مقرّهم . و بعد ذلك بمدَّة ظهر آل سعود في الدرعية واستولوا على بلاد نجد والاحساء والقطيف وعمان واليمن وجبل شمّر (جبل طيّئ) وانقادت لهم القبائل والبلاد وحصل من أمرهم ما هو مشهور . ورجع العلم الى ديارهِ وانبعث من قبره كما سنذكره بعد ذلك ان شاء الله تعالى

بغداد سائنا

أيها القمر

الآن وقد أظلم الليل و بدأت النجوم تنضح وجه الطبيعة التي أَعْيَتْ من طول ما انبثت في النهار برشاش من النور الندي ّ ينحدر كأنهُ قطرات من الأمواج المتلاطمة في بحر النسيان الذي تجري فيهِ السفُنُ الكبيرة من قلوب عشاق مهجورين برَّحت بهم الآلام ، والزوارق الصغيرة من قلوب أطفال مساكين تنتزعها منهم الأحلام ، تلك تحمل الى الغيب تعَباً وترَحاً ، وهذه لعباً وفرحاً ، والغيب كسجلّ اسماء الموتى تختلف فيهِ الألقاب ، وتتباين الأحساب والأنساب ، وتتنافر معاني الشيب من معاني الشباب ، وهو يعجب من الذين يسمّونهُ بغير اسمهِ ولا يعلمون انهُ كتاب في تاريخ عصر من عصور التراب

والآن وقد بدأت الطبيعة تتنهد كأنها تنفّس بعض اكدارها ، أو تملي في الكتاب الأسود أخبار نهارها ، و بدأ قلبي يتنفس معها كأنهُ ليس منها قطعة صغرى ، بل طبيعة أخرى ، ولله ما اكبر قلباً يسع الحب من قبلة اللقاء الى ذكراها ، ومن

حياة الصبى الأولى الى ما يكون من الجنة أو النار في أُخراها ، إن هذا لهو القلب الذي ترى فيه الطبيعة كتاب دينهـا المقدس فاذا لحق العاشق الذي يحمله بربهِ تناولتهُ وهي جاثية كأنها في صلاة الحزن ثم قبلته ثم قلبته ثم أودعته في مكتبة الابد لأنهُ تاريخ قلب آخر بل هو جزء من الموسوعات الكبرى التي يدوّن فيها الدهر تاريخ النفس الانسانية على ترتيب بعينه تعلّم الناس منهُ أن يبدؤا لغاتهم جميعاً بحرف (الألف) لا لأنهُ من أقصى الحلق . . . بل لأنهُ من أقصى القلب ، بل لأنهُ من أقصى التاريخ ، بل لأنهُ أول اسم (آدم) ذلك العلم الأول في تاريخ الحب

والآن وقد رقّت صفحة السماء رقة المنديل ، أَبلَتهُ قُبَل العـاشق في بعاد طويل ، أو هجر غير جميل ، وتلألأت النجوم كالابتسام الحائر على شفتي الحسناء البخيلة كأنهُ قطرة من الندى تلمع بين ورقتين من الورد . وأقبل الفضاء يُشرق من أحد جوانبهِ كالقلب الحزين حين ينبع فيهِ الأمل ومرّت النسمات بَليلةً كأنها قِطَع رقيقة تناثرت في الهواء من غمامة ممزقة . وأقبلت كل نفس شجية ترسل آمالها الى نفس أخرى كأنها أحلام اليقظة . ونظر الحزين في نفسهِ والعاشق في قلبهِ ونام قومٌ قد خلت جنوبهم فليس لهم نفوس ولا قلوب . ولبس الكون تاجه العظيم فأشرق عليهِ القمر

والآن وقد طلعتَ أيها القمر لتملأ الدنيا أحلاماً وتشرف على الارض كأنك روح النهار الميت ما ينفكُّ يتلمَّس جوانب السماء حتى يجد منها منفذاً فيغيب . فهلمَّ أبثك نجواي أيها الروح المعذب واطرح من أشعتك على قلبي لعلي أتبيَّن منبع الدمعة التي فيهِ فأنزفها ، إن روحي لا تزال في مذهب الحس كأنها تجهُش للبكاء ما دامت هذه الدمعة فيـهِ تجيش وتبتدر . ولكن اذا أنا سفحتها وتعلقت بأشعتك الطويلة كأنها معنى غزلي يحمله النظر الفاتر فلا تلقها على الارض أيهـا القمر فان الارض لا تقدّس البكاء وكل دموع الناس لا تبل ظمأ النسيان ولو انحدرت كالسيل يدفع بعضها بعضاً

أرأيت أيها القمر هذا النهر الصافي الذي يجري كأنهُ دموع السحر من أجفان

هاروت وماروت ويطّرد بجملته كأنهُ قطعة من السماء هاربة في الارض . وهل ترى في شاطئهِ تلك الشجرة الناضرة المتلئة بالاوراق كأنها مكتبة يتصفحها الهواء ؟ هذه هي مثال الفلسفة الطبيعية فكل حكيم لا ينبت على شاطئ الدموع الشريفة فهو فيلسوف جافّ كأنهُ مصنوع من جلود الكتب . وما دمعتي الاَّ النهر الذي نبتَ في شاطئهِ وهي أطهر شيءٍ وأصفاه لأنهـا مخلوقة من ثلاثة عناصر تقابل العناصر السماوية . من الحب الذي يقابل عنصر النار ومن اللين الذي يقابل عنصر الهواء ومن البكاء الذي يقابل عنصر الماء

ليس كل مَن عصر عينيهِ فقد بكى . ان البكاء لأشرف من ذلك . وكما يكون الضحك احياناً حركة في الافواه تبعثها العادة كحركة الحواس الغليظة فيضحك المرء وقلبه صامت كذلك يكون من البكاء ما هو حلم الأسى لأن في العين حاسة لا بد من تمرينها أحياناً تسمى حاسة الدموع

وما إن لقيت باكياً الاَّ رأيت وجوه مقبلاً عليَّ كأنهُ يسألني : تُرى من أين يُذبح الانسان اذا كانت دموعه هي دماء روحه ؟ ذلك لأن الدموع لم تعد على طبيعتها دموعاً بل هي علامات الألم او السخط . الألم من المخلوق والسخط على الخالق فهي ألفاظ من لغة العجز قد تكون أفصح منها كلمات السفاه والغيظ والحنق وما اليها

ولكن الباكي بها لا يجد من الجراءة ما يرفع صوته من حفرة الخلق لضعف إحساسه بالذل السياسي او لضعف قلبه بالتقوى التاريخية فيرفع صوت روحه وهي تتكلم من العين

أريد أن أبكي أيها القمر لأنهُ يخيَّل اليَّ ان حقائق كثيرة تغتسل بدموعي وأني لا اكون في حاجة الى البكاء الاَّ حين تكون هي في حاجة الى الدموع . ولقد شعرت مراراً باهتزاز عقلي في تصفح الأسفار ، واضطراب نفسي في متاحف الآثار ، واختلاج قلبي في معابد الطبيعة التي قامت الجبال في بنائها لأنها أحجار ، فما أفدت من كل ذلك ما أفدته من دمعة تفور في صبيبها ، كأنهـا روح عاشق

يطاردها الموت بين يدي حبيبها ، فان في هذه الدمعة ثواب آلامي ، ويقظة الحقائق من أحلامي

وما زلت حائراً في أمر مشتبه لا أُصيب الوجه فيهِ فلا أدري اذا كانت هذه الدموع المتساقطة تنقضٌ من بناء الحياة لينهدّ ، او هي تضاف اليهِ ليشتدّ ، فاني أرى أقواماً يحيون بالدموع وآخرين يموتون بها . ولعل عين الانسان ملئت بالدموع من اصل الفطرة لتكون منها خنادق مستفيضة حول الروح فلا يقتحمها الفكر ولا يرى أبداً الاَّ ظاهرها .ولولا ذلك ما بقيت الروح من أمر الله

أولسنا نرى الذين يبكون كثيراً يؤملون ان يدركوا من أسرار الروح كثيراً اذ يرون تلك الخنادق قد أخذت تمجُّ ما فيهـا فكأنهم بالماء قد غِيضَ وكأنهم بالأمر قد قُضِي

ولكن الانسان ليس إلهَ نفسه فمتى انكشفت أرض الخنادق الروحية ظهرت فيها حفرة القبر وكانت آخر دمعة تجف منها هي دمعة الموت

بَيد أن الحقائق التي تهيئ للبائسين ذلك الأمل بكثرة ما تفيض أعينهم من الدمع هي في رأي الناس علم وفلسفة لان الجهل في الانسان لا حد له فكل ما ظفر بهِ عده حداً علمياً . أولا ترى ان أجمل ما في الديانات والشرائع قد تحول الى حجارة البيَع والصوامع والمساجد والأضرحة والمحاكم والسجون وكثير من مثلها حتى صارت هذه الأبنية تُفهم الناس من ضروب المعاني اكثر مما تفهمهم الكتب السماوية في الارض والارضية في السماء

ما لي ولك ايها القمر لا أحب ان أُفيض عليك دمعتي فقد ترى فيها أشعة كثيرة من ألوان الأسرار المختلفة . بل أنا أراها في قلبي وقد اشتمل بها الخيال الحزين . خيال هذا الأمل الذي يسميه الناس (الحب) وتسميه الطبيعة (الحياة المعذبة) لان الناس قد مضوا على ان لا يعرفوا الحقيقة الا باوصافها ولا يعرفوا من أوصافها الا ما يتعرف اليهم من ظاهرها الجميل . اما باطن الحقيقة الذي يحتوي السرَّ المحزن فهذا يعرفهُ من يفهم لغة الطبيعة وما لغتها الاَّ أفعالها . وأنت فاذا أردت

ان تدرس علم البلاغة من هذه اللغة فادرس المصائب والآلام والأحزان أنها هي أقانيم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع وانك ان درستها وتدبَّرتَ شواهدها الصحيحة التي لم يصنعها رُواتها أصبحتَ أفصح من ينطق عنها في هؤلاء البكم الذين يقرأ احدهم صفحة الزهر بعينين في أنفهِ . . . ولا يستحي الغبيّ أن يقول لك ان في الزهرة معنى جميلاً

فمن أحبَّ ورأى حبيبته من فرط اجلاله إياها كأنها خيال مَلك يتمثَّل له في حلم من أحلام الجنـة . ورأى في عينيها صفاء الشريعة السماوية وفي خدّيها توقد الفكر الإلهي العظيم وعلى شفتيها احمرار الشفق الذي يخيل للعاشق دائماً ان شمس روحه تكاد تُمسي . ورآها في جملتها تمثال الفنّ الإلهي الخالد الذي يُدرَس بالفكر والتأمل لا بالحسّ والتلمُّس فأطاعها كأنها ارادته واستند اليها كأنها قوّته وعاش بها كأنها روحه . فذلك هو الذي يشعر بحقيقة الحب وهو الذي يقول لك صادقاً مصدوقاً : ان كل لفظة من لغة الطبيعة في تفسير معنى الحب كأنها صَلْصَلة المَلَك الذي يفجأُ الانبياء بالوحي في أول العهد بالرسالة

ليس كل ما يعجبك يرضيك ولكن كل ما يرضيك يعجبك فالجمـال الوصفي الذي يقاس بالنظر ويخرج منهُ الفكر بنسبة هندسية جمال صحيح وحريٌّ أن يكون معجباً ولكنهُ على كل حال بناء جسمي كالقصر المشيد الذي يعجب الفقير المعْدَم فيتمناه فان هو صار لهُ خالياً لم يرضه لأنهُ لا يلتحف سقوفه المموَّهة ولا يفترش أرضه الموطأة ولا يلبس جدرانه الموشاة ولا يقتـات من هوائهِ الطلق . أما الجمال الذي يرضي فهو الذي يشفُّ عن صورة روحك بغير ما يخيلها لك ماء الحياة العكر هذا الذي لا يشفُّ عن شيء ولا يزال يضطرب فيجعل شبحك في اختلاطه كأشباح البهائم اذا ضربت في الماء بأرجلها . فترى من ذلك الجمال كأن ملكاً هبط عليك من السماء وفي يده مرآة فنظرتَ فاذا صورتك بعينها ولكنها في يد ملك

وقليل أن يجد الناس مثالاً من ذلك الجمال فكثير منهم يجحدونه ويرونه ضرباً من الوصف الشعري الذي يظهر في خلقهِ وابرازه مقدار ما في الشعراء من روح

الله . وانما يجحد مثال الجمال الكامل من لا يستطيع أن يكون مثال الحب الكامل واذا كانت المرآة قد علاها الصدأ فكيف يعلوها الوجه الجميل . وكيف تخلص الى روحك من طين هذه الكأس الزجاجية (المرآة الصدئة) نشوة الجمال ولو سكبت فيها حور الجنة كل ما في خدودها

ولقد قيل ان قوماً من العرب ترحّلوا عن بعض منازلهم فكان من أنسائِهم (١) قطعة مرآة صقيلة كأنها وجه المليحة التي نسيتها فمرت بها ضبع كأشأم ما خلق الله قبح طلعة وجهامةَ منظر حتى كأن في وجهها تاريخ الجيف التي اغتذت بها . فوقفت عليها تعجب من اشراقها وسنائها وما كادت تنظر فيها حتى راعها وجهها ولا عهد لها برؤيته من قبل لأن الله رحيم ومن رحمته أن لا تعرف الوحوش أنها وحوش وأن لا تجد أسباب هذه المعرفة . فانقبضت الضبع وزوَت وجهها وقالت : من شرّ ما اطَّرحك أهلك أيها المرآة . . !

فجمال هذه الضبع الذي جحدته المرآة كما يجحد الكافر رحمة الله وحسنها الذي أحالته قبحاً كما يُحيل الطبع اللئيم كل حسنة تتصل به هما أشبه شيء بالعقل والقلب في الحب الاخرق الذي يحب بحواسه فتجوع روحه وتشبع وتعتلّ بالتخمة ايضاً ... وكم في الناس من مثل هذه الضبع وكم في الحسان من مثل تلك المرآة

ما احسب الاحساس الاّ نكتة صافية في القلب تقابل نكتة العين التي يكون بها البصر فكل ما انطبع في هـذه انطبع في تلك لكي تكون الروح بين مرآتين فيسهل عليها أن تدرس الحقيقة بالمقابلة فاذا نزل الشاعر الحسّاس بروضة غناء احسّ بقلبه كأنما يخضرّ بعد يُبس . واذا اطلّ في الغدير الصافي أحسّ بمعنى الماء ينصبّ في عروقه . واذا نظر الى وجه الجميلة الحسناء فلماذا لا يحس ان قلبه امتلأ جمالاً حتى كأنهُ لا يعشق الا شيئاً في نفسه

بلى واكثر من ذلك فان الشاعر ليكتب عمن يحبها فيرى كأنه ينفخ في كل

---

(١) الانساء ما ينساه القوم المترحلون من هنات المتاع وكان العرب اذا تحملوا قالوا انظروا أنساءكم

كلمة معنى من الحياة لأنهُ لا يكتب كلاماً بل يخط صورة قلبهِ . والعواطف الحية تبقى حية ولو كانت مرسومة لانها لا تجتمع في شكلها الذي تنتهي اليهِ الاَّ بعد أن تمر في أدوار الحياه فتألفها الأرواح وتصير كاللفظ ما هو الاَّ أن يذكر حتى ترى معناه للذهن ماثلا

بلى ولقد يخيَّل اليَّ أيها القمر الجميل حين أكتب عمن أهواها انك لفظ في ألفاظي تطلع من المداد فاذا قلت « وجهها » فهل تظن هذا اللفظ الذي هو جملة الجمال الا قمراً في الكلام . واذا قلت « ابتسامها » فهل ترى الحروف الاّ الفجر الندي واذا قلت « هي » فهل ترى الاّ « ضمير » الطبيعة التي تأخذ عنها الانسانية دينها ؟

آه لو تعلم أيها القمر من « هي » !

مصطفى صادق الرافعي

في رياض الشعر

﴿ رأي مختبر عاقل ﴾

عذيريَ من خُلُقٍ باسلٍ أحدَّ وأمضى من الذابلِ
صليبٍ على القسر لا يلتوي اذا غمزتهُ يد الناقلِ
اذا شاقني الأمر صعب النوال مضيت ولو أنهُ قاتلي
وان حال من دونهِ حائلٌ مشت أخمصاي على الحائلِ
حديد قوى النفس ذو همة تضايق في جسدٍ ناحلِ
وأورثنيها فتًى أمثلٌ وأورثها لفتًى ماثلِ

* * *

بلوتُ الزمانَ وأهل الزمانِ فخذ رأي مختبرٍ عاقلِ